باب تدبير المنزل

قد فتحنا هذا الباب لكي ندرج فيه كل ما يهم اهل البيت معرفته من تربية الاولاد وتدبير الطعام واللباس والشراب والمسكن والزينة ونحو ذلك مما يعود بالنفع على كل عائلة

تأثير المرأة في الاسرة

وعملها في الادارة البيتية والتدبير المنزلي(١)

مولاي صاحب النيافة ،
أيها الاحبار الاجلاء ،
أيها الاباء المحترمون ،
أيها السادة والسيدات ،

منذ ساعة ونصف ساعة والخطيبان اللذان تقدّماني يطعنان على المرأة ، ولم يرتفع بينكم صوت واحد بالاحتجاج . ثم انهما نفذا هنا ما ينفذهُ الرجل منذ ستة آلاف سنة فاعتديا على محاضرتي وعالجا الموضوع المعيَّن لي من لجنة المؤتمر . وقد كتبتُ خطابي فاذا بهما يقولان ما يوازيه في معناه فلم يبق لديَّ ما أحدثكم به سوى ان أحتجّ على طعن الخطيبين الكبيرين وعلى تعدّيهما جميعًا . واني بعد أجرّب أن أقول كلمات ثلاث :

امّا كلمتي الاولى فانضمام إلى المتوّهين بفضل نيافة القاصد الرسولي ، المونسنيور اندريا كاسولو ، موجد فكرة هذا المؤتمر ، وفضل الذين عنوا بتهيئة جلساته وتنظيم ابحاثه .

---

(١) خطاب الآنسة ي في مؤتمر العائلة الذي اقيم في القاهرة واشتركت اعماله من الثالث الى العاشر من شهر مايو سنة ١٩٢٥ . وقد انعقد برئاسة نيافة القاصد الرسولي المونسنيور اندريا كاسولو ، ومساعدة احبار جميع الطوائف الكاثوليكية الشرقية والغربية . وتألفت هيئته العمومية من الوجهاء الوطنيين والاجانب الكاثوليك وقد عولجت موضوعاته بلغات اربع : العربية والانجليزية والفرنساوية والايطالية . وكان القسم العربي لجميع الطوائف يلتئم في دار المدرسة الفارونيه بشارع حمدي . اما اليوم الذي القى فيه هذا الخطاب فكان آخر ايام المؤتمر وقد انعقدت الجلسة السادسة مساء في دار المدرسة الفارونية برئاسة نيافة القاصد الرسولي وحضور احبار السريان والارمن والاقباط والكاثوليك والموارنة فضلا عن جماعة كبيرة من الاكليروس من جميع الطوائف ، وأعضاء اللجنة العمومية والتنفيذية وكان الحضور يزيدون على الف نفس والخطيبان اللذان سبقا الآنسة ي هما الاستاذ داود بركات والمطران بك الجميل [المقتطف]

وحسبهم فخراً انهم معالجون حجةً من ابوع حاجات العصر ، وملبُّون نداءً قد يرسله وقد يكتبهُ المظلومون المتألمون

اما كلمتي الثانية فتحيَّة لهذه الدار العزيزة التي تهيمُ عليها روح لبنان الشماء ، وأُحيي في شخص إخواننا الاقباط الكاثوليك الحاضرين هنا — الامةَ المصرية بأسرها . كما يحيي المرءُ في نفحةٍ واحدة جميع رياض الربيع وأزهاره وعطوره

واما كلمتي الثالثة فشكرٌ لهيئة المؤتمر التي فسحت مكاناً للنساء بين الخطباء ، ودعتهن إلى بسط آرائهن وإبداء ملاحظاتهن — وانما اللجنة تعلمنا بذلك مثلاً صالحاً من « الاقتداء بالمسيح » الذي كان اوَّل نصير للمرأة واعدل مدافع عنها ، وكان اول من رفعها وقال بتحريرها الروحي ، وسوَّى بينها وبين الرجل كما سوَّى بين الوضيع والرفيع بقوله ان الجميع ابناء الله يُدعَون . حتى حقَّ للسيد المسيح ان يُدعى الزعيم الاول للحركة النسائية العالمية في التاريخ الحديث

اصواتٌ عديدة تتعالى الآن في جوانب العالم داعيةً الى الاصلاح والانصاف . وبين اهمّ تلك الاصوات صوت خطير يصيح : « أفسحوا للمرأة مكاناً ! » والمكان يفسح للمرأة في المنزل ، وفي المجتمع ، وفي دوائر العلم والعمران . وتقوم المرأة بدورها بكفاءةٍ وأهمية في المؤتمرات الاجتماعية ، والاقتصادية ، والاحصائية ، والعلمية . حتى مؤتمرات السياسة الدولية تشترك المرأة فيها إن لم يكن كعضو عامل فكموظفة في اقلام الترجمة والاختزال والتحرير . فما بالكم بمؤتمر العائلة ، والعائلة خلية المجتمع ولبنتهُ ونسيجهُ ، أو هي بالاحرى نواتهُ الاساسية التي تتناسق حولها دوائر النشاط والحضارة ؟ كما تكون العائلة كذلك يكون المجتمع . واذا جاز لي التشبيه هنا قلتُ انَّ المرأة دعامة العائلة وحوَّها وروحها ، اما الرجل فجدران العائلة وواجهتها وسقفها . وهل من قيام للجدران ، وهل من متانةٍ للسقف بغير اساس مكين ؟

— « مؤتمر ؟ قالت لي سيدة متشائمة ترى الامور من ناحيتها السوداء — وماذا عساكم تصنعون في هذا المؤتمر ؟ وأيّ فائدةٍ تعود من مؤتمركم هذا على المعذبين في حياتهم اليومية ؟ فان ابيتم الاَّ اقامة مؤتمر فليكن ذاك مؤتمراً يُحصي مساوئ الرجال ، ويدوّن خطاياهم ، ويحاكمهم محرماً بعد مجرم ، وكأنهم قوم مجرمون ! »

هذا ما قالتهُ السيدة المتشائمة ، وناقل الكفر — كما تعلمون — ليس بكافر . كذلك ليس من شأني ان اعترض على مثل ذاك المؤتمر ، او ان اقرَّهُ . بيد اني اخشى ازمة

يثيرها تشكيل المحكمة . فاذا كانت جميع الرجال مجرمين فمن ذا يحاكم المجرمين ؟ واذا تكونت المحكمة من نساء شبيهات بتلك السيدة فاني اخاف على سادتنا الاقوياء حدّ السيف أو على الاقل ، مع الظروف المخففة ، أخاف عليهم النفي إلى خطّ الاستواء

كثيراً ما تكون النكتة معبرة عن غباوة وجهل او رغبة في الاذى . ولكنها احياناً قد تكون منفذاً الى أجلّ الحقائق . فاذا اردتنّ ، ايتها السيدات ، اقامة مؤتمر تحاكم فيه الرجال ، او بلغة الاعتدال — اذا اردتنّ اصلاح ما يؤكنّ في الرجل فاليكنّ التأثير في المنزل . فكلّ امرأة في بيتها مؤتمر مستقلّ نافذة احكامه. ان رشيدةً صالحة فلخير العائلة والاجتماع ، وان سيئةً ضالّةً فلتكدر الزوج وشقاء البنين . وحسب مؤتمر العائلة ان يذكرّكنّ بهذا ليحتم وجوده . حسبهُ انهُ يُلفتكنّ الى ما يسهو عن بالكنّ في هذا الموضوع وان يكرّر عليكنّ الفاظ المسؤولية والواجب لتعجب كيف هو يلتئم اليوم للمرّة الاول فقط وسط هذه الزعازع الاجتماعية

تأثير المرأة في العائلة وعملها في الادارة البيتية وتدبير المنزل يتناول كلّ حياة المرأة ويتشعّب بتشعّب هذه الحياة ويتلوّن بألوانها . فلا ادّعي بسطهُ في دقائق لأنكم تعلمون ان مباحث المؤتمر لا تزعم شرح امور مجهولة. وانما جئتهُ تودّ توجيه افكاركم الى نقط معروفة مرغوب فيها ولكنها تضيع في جهاد الحياة وبين تنازع الاهواء . لذلك اقتصر على ذكر الخطوط الكبرى من تأثير المرأة الذي اراهُ ينقسم الى ثلاثة اقسام متشابكة متفاعلة فيما بينها وهي مشتركة بين الغنية والفقيرة

***

القسم الاول يتناول تدبير المنزل وهو محسوس يبدو في اعمال المنزل الرضيعة والنظافة والترتيب ، ومعاملة الخدم ، وتدريبهم وتقسيم اعمالهم ، او القيام بها جميعاً باتقان ولباقة وسرعة. وتدبير المنزل في هذا العصر من الاهمية بحيث لفت اليهِ جميع الشعوب الراقية التي انشأت لهُ مدارس خصيصة لتعلم فيها الفتيات — حتى فتيات ارقى الطبقات الارستقراطية — جميع اعمال المنزل الرضيعة بما فيها الفن الطبخ والغسل والكيّ والخياطة والتفصيل . ومن اللاتي اشتهرن بذلك في هذا العصر ملكة ايطاليا وبناتها ، ووالدة ملك اسبانيا ، وملكة انكلترا وابنتها . فبعد هذه الامثلة ، اليس من السخرية ان تقول المرأة الفقيرة او المرأة التي تحسب انها احتكرت ثروة العالم لان عندها بعض آلاف من الجنيهات، « انا لا اعرف شيئاً من اعمال المنزل ، انا لا اتزوّج لاكون طاهية » وهي تظن ان ذلك دليل على النعمة

والرفاهة وما هو بديل لاً على جيلها بأبجدية حياة المرأة وعلى التربية الناقصة

القسم الثاني هو الادارة البيتية وهذه تقتضي بعض المهارة التجارية والالمام ببادئ الاقتصاد . وقوام هذه الادارة هي ميزانية البيت الداخلية المتفق عليها بين الزوجين وباشتراك الاولاد الذين يساعدون في الانفاق من نتاج عملهم . الميزانية تقوم بالنفقات من سكن وطعام وكساء وغير ذلك من الحاجات الاضافية الضروري منها اولاً ثم ماهو اقل ضرورة ، وعلى المرأة ان تتقيد بالميزانية تقيداً تاماً فتوفر ما يمكن توفيره دون ان تبخع لنفسها المزيد في النفقات . ومن الشروط الاولى لراحة اعضاء العائلة ان لا تحدثهم المرأة عن اثمان اللحوم والخضراوات والفواكه وغير ذلك كلما اجتمعوا حول المائدة فتثير النفور والتأفف . لاسيما اذا كان حديث كل صباح وكل مساء . فقيمة الانسان في ارتفاعه المعنوي واذا تحتم عليها ان يرضي حاجاتهِ الجسدية لتحسن اداءه وظيفتها اولتهُ شروط الصحة ، فهو مع ذلك يحاول ان يلقي على هذه الاعمال حجاباً من التأنق والكياسة والجمال

والتقيد بالميزانية يلفتها شيئاً فشيئاً الى اهمية المال . المال خسيس ايها السادة والسيدات ، عند ما تنهار امامهُ الكرامات وتزحف اليهِ النفوس الخائنة ! ولكن ما اعظمهُ عند ما يراهُ ثمناً لكل ما يُنفق في سبيلهِ من ذكاء ودرس وعناء وجهود وعافية ! بل ما أقدسهُ عند ما نعلم انهُ صائنٌ للكرامة الشخصية ، ضمين بالاستقلال والحرية ! هذا ما يجب ان تذكرهُ المرأة في البيت الذي وضعهُ الله تحت ادارتها . هذا ما يجب ان تقدرهُ في عمل الزوج وعمل الابناء . ولا يعلمُ الاَّ المرأة ما تستطيعهُ المرأة في الانفاق والادخار . فما من فقر معها كان مدقعاً ، الاَّ عرفت المرأة الرشيدة المخلصة ان تلطفهُ بتدبيرها وعنايتها وتجعلهُ شبيهاً بالغناء . وما من ثروة الاَّ تسفها غرور المرأة الجاهلة الدعية نفساً ، وهي بعد تبدو باكيةً منتحبة إذا شاءت ، وتحدث من يسمع بأنها ضحية زوجها واولادها بكلّ الشيء ، وان جميع الناس متفقون على انها جميلة فريدة العصر وعلى انها مظلومة

اما القسم الثالث فهو التأثير المعنوي . وما هو التأثير المعنوي ؟ بعد ان خلق الله العالم جاء فنفخ فيهِ روحهُ . ولقد ذكرت في مطلع الكلام انَّ المرأة دعامة العائلة وجوُّها وروحها . واذا كان تدبير المنزل وادارتهُ شرط الراحة المحسوسة فكيف اصف روح المنزل وجوَّهُ ؟ كيف اصف لكم الشجرة الظليلة في القفر ، والواحة في الصحراء ؟ كيف اصف مرفأ الامان بعد الاهوال ؟ كيف اصفُ الثقة والراحة والتعزية والغفران والتشجيع والرجى ؟ كيف اصف محراب التجدُّد والحبّ والجمال حيث يتلقى الرجل قوة

جديدة لجيادهِ اليومي ، وحيث يشبُّ الابناء على الثقة والمحبَّة والاحترام والاستعداد لخوض معركة الحياة ؟ عند ما يتمُّ عقد ازواج بين رجل وامرأة فهذان يتعهَّدان ان يقوما بجميع حاجات ابنائهما الجسمية والمعنوية ، فهل يقوم جميع الاهل بتعهدهم هـذا ؟ ام هم كثيراً ما يقذفون الى هذا المجتمع بأفرادهم عالة عليهِ ، وهم في جسمهِ فسادٌ وامراضٌ ؟ ولو شاء جميع الاهل ان يحسنوا تنشئة ابنائهم فهل هم على استعداد لذلك ؟ هل يدرك جميع الاهل معنى التربية ، معنى الابوَّة والامومة ، معنى القدوة الحسنة ؟ هل هم يفهمون معنى القدوة وهي كل التربية ، وكل السلطة ، وكل نسيج الحياة ؟

ان روح السلام والحبّ تعلو علواً عظيماً فوق حياة الثروة والرياش والزخارف ، وهي التي تجعل البيت نبياً وترفع الاكواخ فوق القصور . مهما كان للرجل من التأثير في روح العائلة فاني راسخة الاعتقاد بأن مصدر هذه الروح في المرأة . المرأة حبُّ البيت او هي بغضهُ ، هي ملاكهُ او هي شيطانهُ . واعتقد ان المنزل قد يكون على سعادة نسبيَّة ، فيشبُّ الابناء فيهِ على الكرامة والعمل والثقة بالنفس وحبّ الخير حتى ولو كان الاب دون مكانة الاب باخلاقهِ — اذا كانت الامُّ محبة صادقة حكيمة . ولكن الشقاء كلّ الشقاء لبيتٍ لا تعرف فيهِ المرأة كرامة وظيفتها في العائلة ، والتهدُّم ينتظر ذلك البيت ولو كان الرجل فيهِ وجيهاً في قومهِ عالماً حكيماً

لستُ مبالغة في تعريف تأثير المرأة . بل هو الواقع الذي يعرفهُ كلّ منَّا . ولقد كان الرومان يقيمون من النساء كاهنات يحرسن النار المقدسة في الهياكل ، ولم يُعهد قط لرجل بهذه الوظيفة السامية لان النار رمز للحياة والمرأة حارسة الحياة كما هي موزّعة الحياة . فاذا كانت رشيدة فهي النار المجدّدة المغذية المحيية مصدر الصلاح والقوة والسعادة . والاَّ فهي نار الحريق العاصفة الطاغية تمرُّ على الثروة والنشاط والنيات الطيبة فتلتهمها ، وتمرُّ بالنفوس الفتية وبصروح العمران فتتركها خراباً ودماراً

تأثير المرأة لا يتم بفعل الارادة فقط بل هو نتيجة لمجموع اخلاقها ومعارفها ومدركاتها ومطالبها في الحياة . وهناء المنزل ورقي العائلة يقوم بدئاً على انتظام الامور الحيوية الموكلة عليها المرأة ، لتنمو العائلة بعدئذٍ وتتسع وتتسامى وتؤدي كل وظيفتها في المجتمع . شأن الشجرة التي تنفتح بذرتها الصغيرة في ظلمات الارض ، ثم تنبثق حياةً في الحقول ، وتشتد اصولاً ، وتتفرَّع غصوناً ، وتزهر وتثمر وتمضي صعوداً في الفضاء مثقلة بممكنات الحياة الجديدة محدثةً بعظمة الوجود ونعم الباري !

ولقد وضعت لجنة المؤتمر امثلة اودّ ان انقل منها ما لهُ منها علاقة بموضوعي. وهي :

السؤال الاوّل — ما هي الوسائل الفعّالة التي تخفّف عن ميزانية العائلة وتحفظها من الخلل ؟

الجواب — تنظيم الانفاق بموجب الايراد — كلمة في انتوراة تلخّص جميع نظريات علماء الاقتصاد وعليها يقوم نشاط العالم « بعرق جبينك تأكل خبزاً » . كثيرون في الاسرة الواحدة يعيشون عالةً على الآخرين الذين يكتسبون كرهاً ولكنهم مظلومون . كل مستهلك في المجتمع يجب ان ينتج ليتسنّى لهُ متابعة الاستهلاك — يجب ان يعمل الجميع كلٌّ في بابهِ وفي حدود كفاءتهِ — وعندئذٍ يزيد الايراد و يتمّ الإنصاف بين الافراد

السؤال الثاني — كيف نغالب روح الغرور والبذخ المخلّة بميزانية العائلة ؟

الجواب — البذخ والاسراف يأتيان عادةً من الذين لا يجهدون للحصول على المال أو هم تأتيهم الارباح بسهولة قبل ان يتدرّبوا على فنون الاقتصاد . فيجب تثقيف الاولاد على تقدير المال وعدم التفريط بالدرهم الاّ في وقتهِ وفي مكانهِ. الفرق عظيم بين الاقتصاد والبخل — البخل والتبذير ابداً متلاقيان . اما الاقتصاد فهو فضيلة في نظر ارسطو لانهُ جعلهُ الوسط بين البخل والتبذير وقال ان المقتصد هو المريُّ (صاحب المروّة). — وجوب العمل للاقلاع عن البذخ والغرور لان العمل في ذاتهِ تثقيف يوقف المرء على ممكناتهِ و يعلّمهُ الاعتماد على النفس دون التهوّر والهوس — الالم والحاجة مهذبان للبذرين — وليست الثروة غاية الحياة بل هي من وسائلها فقط

السؤال الثالث — هل يحسن ان ينشأ هنا مدارس على منوال مدارس اوربا تلقن دروساً في التدبير المنزلي والاقتصاد ؟

الجواب — بل ذلك واجب — الفتاة تنتقل الى بيتها الجديد وقد فُرض انها تحسن ادارتهُ ولكنها في غالب الاوقات لا تحسنها ، ولا تعرف منهُ الاّ الاثاث والرياش وزينتها الخصوصية . فيجب إفراد دروس في التدبير المنزلي في برامج جميع مدارس البنات بلا استثناء — لان جميع البنات مهيئات ليكنّ ربّات منازل . فان لم يتزوّجن احسنّ ادارة شؤونهنّ لحفظن كرامتهنّ . كذلك يجب ان يعرفن مختلف اعمال المرأة و يتقنّ اشغالها. وجدّا تعليمهنّ ما يضمن لهنّ العيش . فمثل هذه المقدرة في المرأة حلية ومثلٌ جميل اذا كانت غنية . وهي عون وثروة في الفاقة — ونحن نجهل ما قد يجيء بهِ الغد . يجب تهيئة الناشئة رجالاً ونساء لكلّ مصاعب الحياة .

السؤال الرابع — أيوجد في مصر جمعيات لمساعدة العائلات العديدة ؟ ما الوسيلة لمساعدة العائلات ليس بصورة الاحسان الذي يجرح النفوس العزيزة ولكن بصورة التعاون؟

الجواب — هذا السؤال يشتمل على الجواب . يجب ان تُقسم الجمعيات الخيرية الى قسمين : قسم الاحسان للمريض والعاجز والقاصر . فالرحمة نحو هؤلاء مفروضة على الاقوياء بحكم الدين وبحكم الانسانية جميعاً . ولكن الاحسان الى الذين ليسوا بالعجزة ولا بالمرضى ولا بالقصّر يكون جرحاً او إفساداً ، وهو هذا في الغالب . فيجب ان ينشأ مع قسم الاحسان قسم تعاون يجعل العمل ميسوراً للمحتاجين ولا يعطي المال بمثابة إحسان بل كتكليف يجب ان يُسدَّد من نتاج العمل بالتقسيط ، او بخدمات للجمعية يؤديها المستدين نفسهُ من عمله . وكذلك تصلح مشكلة الاحسان المعقّدة

هناك كلمة شهيرة لبريكلس زعيم الجمهورية اليونانية وهي :

« لا يخجل احد عندنا بفقره ولكنهُ يخجل ان لم يداوِ ذلك الفقر بجهوده وعمله . فالسبيل الى الثروة هي في العمل ، ثم العمل ، ثم العمل »

وفي العالم اليوم ثورات وزعازع وعواصف اجتماعية واقتصادية وحاجات وجيعة وتطوُّر سريع وكلّ ذلك يستلزم تهيئة الفرد ليكفي نفسهُ اوّلاً ، ثم يتبادل المصالح والمنافع مع ابناء جنسهِ . فيتسنّى لهُ بذلك ان يبتاع حقوقهُ بتأدية واجباتهِ

لذلك وجب ان تدرك المرأة اهمية وظيفتها وكلّ ما يمكن ان يكون تأثيرها في العائلة — فأُنادي بها لتفطن لهذا المجد العظيم مجد الزوجية والامومة والسيطرة على المنزل بالفطنة والعناية والمحبة والعمل !

وانادي بالرجل ليساعد على انهاض المرأة وتثقيف الفتاة فتكون هي بدورها مهضة لجيل الغد ومثقفة لناشئة المستقبل . ولا عطف في العالم يوازي عطف الرجل القوي في ارشادهِ وحكمتهِ

فالى العمل والى النهوض رجالاً ونساء وفتياناً وفتيات ! ولنا نحن النساء مثل اعلى في تلك التي كانت اودع وارشد امرأة في بيتها الفقير في الناصرة كما كانت اشجع واعظم امرأة على جلجلة التضحية الدموية عند قدم الصليب . مثلنا الاعلى هو تلك التي هي زنبقة اليهودية ، وموضوع تكريم الاسلام ، وابهى مثال نسائي تفاخر بهِ المسيحية ، هو مريم العذراء صاحبة هذا الشهر الجميل التي ما فتئت تشع منذ الفي سنة متجلية بجمالها وفضائلها وطهارتها فوق جميع الدهور انتهى

(ع)